مجلة العلوم الإنسانية —— عدد 48 ديسمبر2017، المجلد أ، ص. ص 39-46 ——

تمثلات الشرق في أدب الرحلات الفرنسية

أد.ليلي جباري
كلية الآداب و اللغات
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة
الجزائر

ملخص:
يروم المقال الاقتراب من موضوع الصورة الذي يعد من ميادين البحث المهمة في الأدب المقارن؛ ونظرا لما يطرحه هذا النوع من الدراسة من مشكلات منهجية، فإنه يصعب على المبدع تقديم صورة مطابقة للواقع، بل هي في الغالب صورة متخيلة تتجلى في صياغتها الجديدة من خلال النص المنتج من الآخر. وهذا على النحو الذي تجسده الخطابات الرحلية الفرنسية.

Résumé:
Notre étude porte sur le concept de l'imagologie qui s'intéresse à un domaine fondamental de la littérature Comparée. Ce type d'approche, posait un problème méthodologique important. Cependant, il est difficile de cerner une image avec toute la rigueur exigée et d'éliminer tout risque d'imagination ou d'invention des textes. C'est cette problématique de l'autre, étranger représenté par l'homme oriental, que nous allons tenter d'analyser à travers les récits de voyageurs français.

مقدّمة:

من الأسئلة الملحة التي يطرحها الراهن وتعنى باهتمام الدارسين جدلية الذات والآخر التي تحتل الصدارة في النقاشات الفكرية المعاصرة، ولا يقتصر الأمر على العالم العربي لما يشهده من اكتساح ثقافي غربي، بل يمتد ذلك إلى العالم الغربي. تزامن ذلك مع تطور الدراسات الثقافية في الغرب والتوجهات الجديدة لعلم الأدب المقارن. جاءت تلك الدراسات التي تضمنت بصمات المثاقفة لتكريس النسق الثقافي الغربي، الإيحاء بالخطاب الاستعلائي والسعي لتأسيس نظرة موضوعية ـ إنسانية للآخر.

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2017

وهذا على النحو الذي تمثله طروحات إدوارد سعيد الاستشراق (Edward Said,Orientalisme) تيري هانتش الشرق المتخيل (Thierry Hentsch, L'orient imaginaire) تزفيطان تودوروف J.P.Charnay Les contres-orients) (T.Todorov, Nous et les autres) (Dominique Groux, L'altérité) أو ما يمكن ملامسته في كتابات حسام الخطيب (من العالمية إلى العولمة وآفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا) وعز الدين المناصرة (المثاقفة والنقد الثقافي) من أبعاد ثقافية إنسانية كالتصدي للمركزية الغربية، الاهتمام بالثقافات المهمشة والانتقال من التقابل والتضاد إلى منطق الحوار والالتقاء. وقد تكون صور نمطية تتشكل في ذهن المتخيل لتصبح قابلة للتغيير والتحوير وفقا للأنساق الثقافية وما تضمره من دلالات.

وتظل قدرة النص على إعادة تشكيل الواقع من المقومات التي يبنى وفقها النص الأدبي، فالمتخيل يعيد " تسجيل بنى الواقع، أي إعادة صياغته وتشكيله، وبهذا فإن المتخيل يأخذ من الواقع مادة قبل أن يأخذ صورة وشكلا، والمتخيل من جهة أخرى يمثل جانبا من جوانب الواقع وأحد مكوناته، فالمتخيل برغم كونه مكونا من مكونات الواقع يؤثر فيه ويحدث خلخلة في بنياته." (1)

هكذا تصبح الصورة متعالية على الواقع الفعلي وحيثياته المجردة شكلا ومضمونا، يقدم المبدع فعلا تخييليا متجاوزا الواقع، دون أن يحدث تعارضا بين الصورة والموضوع. فالصورة بهذا المعنى لا تنفصل في كثير من الأحيان عن العالم التخييلي، ولا تفسر بتحديد لفظي، بقدر ما يمكن تصنيفها ضمن منهج عملي يرتبط بالخيال الاجتماعي" كمعطى موضوعي يتجسد عبر المتخيل، ويكتسب دلالات جديدة ... يمكن مقاربة المتخيل من حيث هو دلالة، ودلالة هذا المتخيل هي حتما دلالة الواقع لأنه مرتبط به عضويا ".(2)

والخيال الاجتماعي لدى الدارسين المقارنين يحدد بشقين اثنين، الذات والآخر، أو الأنا في مقابل الآخر، بوصف الآخر الوجه المقابل للأنا والمكمل لها، والإطار الذي تفسر من خلاله حتمية العلاقة بين تاريخ الأفكار والصورة الأدبية. فهناك تقاطع بين علم الصورة والمعارف الأخرى مثل علم الاجتماع والتاريخ والفلسفة التي تطرح موضوعات حول سؤال الهوية، المثاقفة وتهميش الثقافات. (3)

وفي مجال الدراسات المقارنة، فإن الصورة تعبير عن انزياح ذي محمولات دلالية بين تشكيلتين مستمدتين من الواقع الثقافي. فنحن نلمس في مفهوم الانزياح ملامح الأجنبي التي تشكل كل فكر مقارني. والصورة بهذا المعنى إعادة صياغة الواقع الثقافي وتقديمه على مستوى مجازي، بصرف النظر عن كون الصورة صادقة أو مبالغا فيها؛ فهي مرتبطة بالوعي القومي للأدب الذي تنقل إليه، فيكون لتغيرها أو لتطورها دلالة من حيث تفاعل الأنا مع الآخر تأثرا وتأثيرا.

وتظل الصورة تختلط فيها الحقائق بالغرائب، فهي ذات رؤى متباينة، وعدم تطابقها للواقع ما يبرر وجودها (4). فالصورة لا تعرف بمدى علاقتها أو مطابقتها للواقع بقدر ارتباطها بالبنية الثقافية والاجتماعية للذات الناظرة التي لها القدرة على تغيير وجه الآخر. فصورة الأجنبي لا تمثل الواقع بحيثياته، بل مجموعة عناصر ممثلة في الألفاظ والصيغ التي تحمل دلالات مستوحاة من المرجعية التاريخية والتراكمات الثقافية، ويمكن تأويلها بالصور التي تشكلت في مخيلة المبدع في إطاري الزمان والمكان. (5)

فالنص المنتج من الآخر هو إعادة تشكيل نص جديد، يحتكم لتصورات مسبقة مثل التأثيرات الثقافية والأيديولوجية ودورها في إنتاجية النص؛ لذلك فالصورة " لا تتطابق مع الحقيقة، بقدر ما ترتبط بثقافة الآخر، وبأيديولوجيته وانتماءاته الحضارية ... " (6) وما تجب الإشارة إليه هنا أن الصورة النمطية stéréotype التي توحي بالأحكام المسبقة Préjugés ، تشكل وفقها صورة الآخر، وقد ساهم المستشرقون الأوروبيون في تكريس هذا النمط من الصور خلال الرحلات التي قادتهم إلى الشرق، وتأتي الصورة بمثابة اللغة الثانية لماهية الصورة في الأدب المقارن.

تكمن أهمية النمطية في عملية إدراك وصياغة الآخر في شكل مختصر وسلبي، وتشويه ثقافته، وهذا ما يفسر حقيقة الصور المتنوعة " للغريب " L'étranger الذي تصاغ حسب التصورات الذهنية المطابقة لوجهات النظر الأيديولوجية والعرقية " لتنتمي بشكل ما لزمن أسطوري خارج الحدود الزمنية

المألوفة ... " (7) ويمكن التمثيل في هذا السياق برحلات الفرنسيين إلى الشرق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، بوصفه فضاء يتماشى وأفكاركم وتصوراتهم الأسطورية مجالا للتعبير عن أغراض معرفية أفادتهم في الكتابة عنه.

وعلى النحو الذي يقره (فيكتور سيجلان) Victor Segalen فالآخر كيان ثقافي مغاير، والذات تشعر بلذة الاختلاف أثناء عملية الاحتكاك بينهما " فالذهاب نحو الآخر هو انتزاع من الذات ومن ثقلها الثقافي الأصلي، واستقبال الآخر في تميزه ومغايرته، إذ يمكن التمتع بالأجنبي من منطلق كنه ينتزع المرء من نرجسيته ومن انغلاقه. " (8) وبما أن الصورة في بعض جوانبها تترصد العلاقة التي تنشأ بين الرحالة والبلد الأجنبي المزار، فإنها من هذا المنظور تتخذ طابعا أدبيا على النحو الذي يصفه (دانيال هنري باجو) Daniel Henry Pageaux بالصورة الأدبية L'image littéraire التي تكشف عن الفوارق بين نظامين لثقافتين متمايزتين، وتعد بذلك تمثلا لفضائهما الثقافي والاجتماعي. (9) يقترح (دانيال هنري باجو) في هذا الشأن بعض الآليات الإجرائية لمقاربة الصورة في مجال الدراسات الأدبية المقارنة، وتكمن تلك الآليات في المعجم (الصيغ والكلمات) الأفكار وتشكل العلاقات بشكل هرمي بين الأنا الآخر.

يمثل الخطاب الأدبي وثيقة أنثروبولوجية يتجلى من خلاله نظام قيم الآخر، ولعل هذا ما يوحي ببعض المجالات البحثية التي تتناولها الصورة كالمثاقفة، النمطية، الأحكام المسبقة وجدلية الذات والآخر. هذا ما يدعو الدارس إلى العناية بالجانب الجمالي للإفصاح عن هذا النمط من الصور، دون الاهتمام بمدى صدقها أو عدم مطابقتها للواقع؛ فهو في مطلق الحالات لا يسعى إلى الكشف عن الحقيقة، بقدر ما يطمح إلى " بلوغ القيمة الأدبية أي جمالية الصور أو قبحها... " (10)

ولنا في ذلك شواهد عديدة، نذكر منها ما ورد في كتاب الأدب المقارن (لماريوس فرانسوا غويار) La littératture comparée par Marius- François Guyard إذ يفيدنا بتجربة الأدباء الفرنسيين الذين تأثروا بالآداب الإنجليزية في القرن الثامن عشر، مما أتاح اكتشاف انجلترا أدبيا وجماليا. وقد تجلى ذلك في توظيفهم لشخصيات أدبية مثل (ويليام شكسبير) William Shakespeare و(مدام دو ستايل) ومؤلفها "عن ألمانيا" De l'Allemagne par Mme de Staël الذي يعد من بين المؤلفات التي أتاحت للفرد الفرنسي الاطلاع على الأنماط الثقافية وعادات وأخلاق الشعب الألماني. (11)

وعلى شاكلة هؤلاء المهتمين بدراسة علم الصورة، نستحضر كتاب (تزفيطان تودوروف) Tzvetan Todorov (نحن والآخرون) Nous et les autres الذي يطارح فيه مجموعة مساءلات تتصل بميدان الصوراتية L'imagologie. نشير في هذا الموضع إلى طبيعة الصورة التي يفترض أن يشكلها الرحالة، فهي في غالب الأحيان ناتجة عن أفكار مسبقة قد تتشكل في ذهن الكاتب مسبقا على النحو الذي نلمسه في رحلة (فرانسوا رينيه دو شاتوبريان) François René de Chateaubriand إلى أمريكا، فقد " اقتبس وصف أعراف الناتشيين Les Nathez وحكاية عصيانهم من كتاب تاريخ فرنسا الجديد للمؤرخ شارلوفوا. وكان يتباهى بأنه بقي وفيا له وبأنه أضاف إلى الحقيقة، إنما كشاعر فقط، مصدره الرئيس كتاب قرأه في فرنسا، وأكثر بكثير من الوقائع الملاحظة في أمريكا. أما فيما يتعلق بالإضافات الشعرية وبعلاقتها بالواقع الأمريكي فنحن نملك عنها نموذجا جيدا. " (12) مما يعني أن المصادر المعتمدة في تسجيل انطباعات الكاتب مستوحاة من الأحكام المسبقة التي استمد مادتها من مرجعيات تاريخية.

مقاربة تطبيقية

المبحث الأول / الصورة النمطية للشرق في الكتابات الفرنسية

يأتي هذا المبحث لاستجلاء الصور والتصورات التخييلية التي شكلتها الكتابات الفرنسية عن الشرق خلال القرنين التاسع عشر والعشرين والمادة الإثنوغرافية التي زودتنا بها تلك الكتابات عن المجتمع الشرقي، من عادات وقيم ومعتقدات؛ وحيث يصبح الشرق ضرورة من ضرورات الخيال . " فلا يزال خطر مزدوج يحدق بعمل الانطباعي، فصورة الآخرين معرضة لأن تكون سطحية ... ثم إن التجربة تفقد الكثير من براءتها عندما تفرض استخدام الآخر كوسيلة " (13)

فمسار التاريخ تشكله الصور التخييلية المتبادلة بين الشعوب والحضارات، والتي غالبا ما تتحول إلى صور تنميطية. فقد استقطب الشرق العديد من الرحالة الفرنسيين الذين استوحوا موضوعات كتاباتهم من ملحوظات أسفارهم، أو ما انطبع في مخيلاتهم نتيجة لقراءات مسبقة.

نستحضر في هذا السياق انطباعات أحد المستشرقين الفرنسيين " فأما عن دراسة السلوك، فقد أصبحت مستهلكة وغاية في الابتذال ... وإني لم أر شيئا حتى الآن يدهشني ولو قليلا أو حتى يثير اهتمامي ... " (14) جاء هذا الخطاب محملا بالصيغ النسقية ليتسع المجال للتفسير التأويل، فلا يقرأ النص لذاته إنما من أجل الإجابة عن الأسئلة المعرفية والمعاني المضمرة التي يتضمنها النص كما هو الحال في النقد الثقافي. فتعدد القراءات في حد ذاته يوحي بخضوع النص الأدبي لتأويلات متباينة على مر العصور. والنص " يكون غالبا بمنزلة ستار يخفي أفكارا ويضمر حقائق حياتية، ويعكس أيديولوجيا ثقافة بصيغ لغوية تلعب الألفاظ والسياقات دورا بارزا في الكشف عنها. " (15)

فالمشهد السردي الذي مثلنا به يحيلنا على الخطاب الاستشراقي وما يتضمنه من دلالات توحي بالنظرة الاستعلائية، إذ مع إطلالة منتصف القرن الثامن عشر، أخذت بعض المفاهيم تتبلور في أذهان الأوروبيين مما عمق لديهم فكرة العداء تجاه الشرقيين، وساعدهم في ذلك التوسع الهائل للاستعمار الأجنبي في مناطق المشرق والمغرب على حد سواء فضلا عن القوة الاقتصادية التي يتمتعون بها.

مثل هذا التصور يرجعه الباحث الفرنسي (تيري هانتش) Thierry Hentsh إلى أسباب عرقية، ويرجح أن يكون هذا " التأويل يختزن نظرة عرقية لتاريخ المنطقة، وهو ما يزال مقبولا من طرف الغرب حتى الآن، لكن الفترة الحاسمة التي أبرزت الصراع الحضاري بين شرق المتوسط وشرق أوروبا تمثلت في الحروب الصليبية، من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر، كرس هذا الصراع قطيعة حاسمة بين الشرق والغرب ... " (16)

ولعل هذا ما يفسر نظرة بعض الرحالة الفرنسيين إلى البلاد العربية والإسلامية، إذ تميزت مشاهداتهم ومساجلاتهم بطابع عام تنقصه الدقة والموضوعية، بل الرغبة في اغتصاب الشرق من جديد بعدما اغتصبته الحروب الوسطى؛ فلا قيمة للشرق خارج ما تمنحه له المركزية الغربية من نتاج فكرها وفلسفتها.

وعلى المنوال ذاته، يقدم (لويس برتران) Louis Bertrand توصيفا للشرق لا يخلو من الحس الانتقادي للشرق، فهو لا يمثل في مخيلته سوى الانحطاط " وأهل الشرق لا يختلفون عن الحيوانات التي يعيشون بينها ... ثم لا يخفى على المرء أنهم يحلمون باسترجاع عصورهم الذهبية حيثما كانوا منتصرين علينا " (17) إنه اختزال للشرق وتكريس الصورة النمطية السلبية عن الشرق المفترض (الشرق المتخيل لتيري هانتش)

في السياق ذاته، شكلت الجزائر لدى (ألبير كامي) Albert Camus موضوعا مجازيا ـ في غالب الأحيان ـ ارتبط بذاتيته وبذاكرته التاريخية، رصد توصيفات دقيقة مثلت مواقفه السياسية اتجاه القضية الجزائرية. وإن كان قد أدان بشدة جرائم الاستعمار الفرنسي من عام 1945، إلا أنه كرس فكرة الاندماج بهدف التقريب بين الدولتين الجزائر وفرنسا، مما جعل خطاباته متناقضة في كثير من الأحيان.

وللتدليل على ذلك نورد حديثا (لألبير كامي) نشر بجريدة (الجزائر الجمهورية) Alger républicain التي صدرت ضمن مجموعة مقالات كتبها أثناء نشاطه السياسي بالجزائر من عام 1939 " مثلما أدنت الاستعمار، فإنني أدين كذلك الإرهاب العشوائي الذي يمارس في شوارع الجزائر، والذي يمكن أن يمتد إلى والدتي وأسرتي. حقيقة أومن بالعدالة، لكنني أفضل الدفاع عن أمي بدل العدالة." (18)

خطاب استشراقي يوحي بإشكالية الغيرية L'altérité التي لا تخلو من إحساس الكاتب بالتفوق الحضاري وسعيه لإجهاض القضية الجزائرية، إذ رغم دعمه لقضايا السلام العادلة، ونزعته الإنسانية وعدم جنوحه إلى العنصرية، فالصورة التي رصدها (ألبير كامو) تبدو متعالية على الواقع، تضمنت صيغا ودلالات مستوحاة من التاريخ ومن التراكمات الثقافية تضافرت جميعها لتشكيل الآخر وإعادة صياغته. (19)

في الواقع، حظيت صورة الأوروبي في كتابات (ألبير كامي) بمكانة إيجابية ومركزية، بينها خضعت صورة الجزائري لاستحكام النزعة الإثنومركزية، تحت تأثير الخطاب الاستعماري المستمد من كتابات المستشرقين. فمعظم توصيفات الكاتب توحي بالصورة النمطية للجزائر، إذ ظلت الشخصية الجزائرية لديه مغيبة ومبهمة الملامح قد يلمح إليها دون ذكر اسمها أو قد يستوقفنا عند مدينة لا توحي ملامحها إلا بمعاناة أهلها :

" بمدينة تيزي وزو شاهدت أطفالا يرتدون ثيابا وهم يتقاسمون مع الكلاب محتوى قمامة، وعلمت من رجل قبائلي أن مثل هذا الأمر يحدث في كل يوم، كما أخبرني شخص آخر أن المدارس الابتدائية تستقبل يوميا العديد من التلاميذ ... وأن أغلبهم لا يقتاتون طيلة اليوم سوى قطعة خبز يابس ... " (20)

يوجز (ألبير كامو) حديثه في وصف تيمة الفقر التي تعاني منها منطقة القبائل الكبرى خلال سنوات 1939، دون التلميح إلى أسباب الوضعية الاقتصادية والاجتماعية التي كانت عليها هذه المنطقة. وتظهر اللغة الوصفية للواقع الجزائري، أن الكاتب تعمد الإغراق في الوصف، بل الدقة في اختيار التعابير والصيغ التي توحي بحقيقة الصورة التي أراد تشكيلها، نستشف ذلك من خلال إقصائه للآخر ومحاولة تدميره على مستوى الوجود.

والحقيقة أن توصيف معاناة أطفال المدارس بهذه الطريقة فيه كثير من الخلط والرؤى المضطربة التي توحي بإنكار هوية الآخر " الغريب "، فضلا عن القرائن التي تفرضها المقاصد الأيديولوجية والمعرفية، لذلك جاء هذا الخطاب محملا بالصيغ النسقية، يتصيد الكاتب من خلالها ما يخدم الحدث ويعيد تشكيل صورة الآخر. ولعل هذا يستدعي " حضور الأنا العربي حضورا واعيا، حضوره كذات لها تاريخ، ذات لها فرديتها وتناقضاتها وسيرورتها الخاصة ... وعي الذات نفسه هو شرط لاكتساب القدرة على التعامل النقدي الواعي مع الآخر ... " (21)

مثل هذه الرؤى تتكرر في كتابات (جي دو موبسان) Guy De Maupassant إذ تتجلى الرؤية الاستعلائية والرغبة في إقصاء الذات العربية (الجزائرية) من دائرة الصراع، مما يضفي طابعا تخييليا يخضع للمقاصد الأيديولوجية والنوازع الذاتية :

" هؤلاء الناس بدائيون في نمط حياتهم وسلوكياتهم، إنهم لا يمتون بصلة إلى الحضارة ... ويبدو أنهم لم يلجأوا إلى وسيلتي القتل والتمرد بسبب الحقد أو التطرف الديني، إنما بسبب المجاعة ... " (22)

يفصح الخطاب عن الثقافة النسق التي فرضتها المركزية الغربية، فهي ليست بمعزل عن السياق الثقافي الغربي، الممجد لحضارة الغرب، وفقا للمخيال الاستشراقي الذي استقى مادته من الرحلات الاستكشافية والذي صاحبه إحساس بالتفوق الحضاري ونمى شعور الأوروبيين بالأورو مركزية. والقراءة النقدية الثقافية تكشف عن أهمية الآخر في تشكيل الأنساق المضمرة في النص الإبداعي؛ بحيث تبدو الصورة وهمية تتجاوز حدود الواقع وتضمر العيوب النسقية الماثلة في وعي الفرد الغربي التي تشكلت على مر العصور التاريخية.

هذا التصور الذي ورثه الرجل الأوروبي عبر التاريخ، أفرز بشكل أو بآخر مثل هذه الرؤى، مما جعل التواصل بين الحضارات خاضعا لطبيعة العلاقة بين الأنا والآخر ليظل الغرب هم الأنموذج الأفضل. والفلسفة الهيجلية هي " أكثر الفلسفات أهمية في بناء الوعي الغربي الحديث، لأنها جعلت رسالتها الأساسية تأصيل الشعور الغربي تاريخيا وعرقيا ودينيا، مما جعل الغرب هو الوارث والمطور لكل الفكر الإنساني عبر التاريخ، وبذلك جعلت الغرب مركزا لنشاط العقل البشري في أنقى أشكاله وتجلياته." (23)

تأكيدا للنظرة الاستشراقية التي هيمنت على الكتابات الأوروبية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، يأتي الحديث عن النظرة الاستعلائية التي هيمنت على خطابات (فرانسوا رينيه دو شاتوبريان) François René de Chateaubriand في رحلته من باريس إلى القدس، ومن القدس إلى باريس في الفترة الممتدة بين 1810 - 1811، إذ يؤول الأشياء وفقا لنزعته الذاتية وتوجهاته الفكرية. لذلك نجده يشدد على أن حرب المسيحيين كان لها مبررها، وهي نتيجة حتمية وليست عدوانا شنه الأوروبيون على

المسلمين. " فالحملات الصليبية أنقذتنا من أن نكون فريسة للأتراك والعرب. بل أكثر من ذلك فتحت مخرجا لذلك الفائض السكاني الذي كان سيؤدي إلى انهيار الدول. " (24)

المبحث الثاني / تجليات ثقافة التسامح في الكتابات الفرنسية

تتحدد العلاقات الإنسانية وفقا للتفاعل المثمر بين المجتمعات المتمايزة وليس انطلاقا من فلسفة التهميش Marginalisation والإقصاء فالحوار Dialogue ينهض على المبادلات الثقافية المتعددة والمتنوعة، بما يتيح مد جسور التواصل والتثاقف Acculturation بين الكيانات الإنسانية رغم التباينات العقدية، الأيديولوجية واللغوية. فمن البداهة أن تنهل الحضارات من بعضها وتمد غيرها ببعض من مميزاتها، فالتأثير والتأثر أمر حتمي توجبه العلاقات وتشهد له العلاقات المتعاقبة؛ مما يستدعي القول إن الحضارات على مر الأزمان تدعو إلى التبادل والتفاعل بما يثري رصيدها المعرفي والفكري ويكسبه أشكالا ومضامين جديدة.

والأهم في ذلك أن يتحقق عامل الاختلاف بين الأطراف التي تتم بينها مبادلات ثقافية، مما يوله إثراء وتنوعا في الخطابات الحوارية. فلا يمكن الحديث عن ثقافة الحوار دون الإقرار بالاختلاف. والحوار بهذا المفهوم لا يقف عند الجدل والتناظر، إنما يعني اكتشاف الآخر واحترام هويته المغايرة ممثلة في المعتقد والأيديولوجيا واللغة، لذلك أصبح من الضروري الإشادة بترسيخ ثقافة التسامح وقبول الآخر.

ضمن هذا السياق، يمكن الوقوف على نصوص الأوروبيين التي تعرض بعضا من تصوراتهم وتؤسس لثقافة الحوار وتحقيق مقاصد التعايش بين الحضارات. ومن أجل مد جسور التواصل بين الثقافات، يشيد المفكر الفرنسي (فرانسوا ماري فولتير) François Marie Voltaire بالمعاني الإنسانية والتثاقف بين الذات والآخر، وهو من تصدى " للاضطهاد الذي كانت تمارسه الكنيسة الكاثوليكية ليجعل من التسامح أداة للتقارب بين الناس، بينما التطرف والتنافر بين البشر لا قيمة له في هذه الحياة من منظوره الخاص " (25)

لعله من الواضح أن مفهوم التسامح قد ارتبط بمعان دينية في بادئ الأمر، ليكتسب دلالات ثقافية وسياسية نتيجة للتطورات التاريخية التي عرفتها أوروبا الغربية. كما نستشف من الثقافة العربية الإسلامية معان توحي بالتعايش المشترك، الإقرار بالاختلاف والحرية في المعتقد. " فقد تنامت الدعوة إلى التسامح في التاريخ الحديث على إثر ما شهدته أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر من لا تسامح ديني وحروب دينية... وتؤرخ كتابات معاصرة لظهور الدعوة إلى التسامح في العالم العربي في التاريخ الحديث ... وكانت الدعوة إلى التسامح تأخذ بعدها العالمي الرسمي منذ أن بدأت المواثيق الدولية تشير إليها في نصوصها... " (26)

وضمن استراتيجية ترسيخ معاني الاختلاف، تكشف لنا الكتابات الأوروبيين تعالق الذات بالآخر، والذي يمكن ملامسته في مواقف بعض الرحالة الفرنسيين وهم يشيدون بالموسيقى الجزائرية مثلما نلمسه في مؤلف "ذكريات رحلة إلى الجزائر والعودة عن طريق إسبانيا" للرحالة الفرنسي (شانوني) Chanony

" تتمتع موسيقاهم بالتنوع والعذوبة، فلا يمكن الادعاء بأن العرب لا يتذوقون الإيقاعات الجميلة والأصوات الجميلة، فما ألمسه هنا عكس ذلك تماما، فعلا إنني استمتعت بتلك الموسيقى الرائعة... " (27)

فدونما ارتهان للأحكام المسبقة والتصورات النمطية، تتحول الموسيقى إلى آلية لاحتواء الآخر، وأداة للتواصل بين الكيانات البشرية باختلاف أجناسها ولغاتها. فثقافات الشعوب بوصفها تعبيرا عن الرقي الأدبي والفكري للمجتمعات، تقوم بوظيفة تواصلية بين الحضارات كما هو الحال لدى بعض مدارس الاستشراق التي لعبت دورا هاما في مجال التقارب الثقافي بين الأمم.

ضمن هذا المنعطف الحضاري، يبدي (جان بول سارتر)Jean Paul Sartre تأييده للثورة الجزائرية في إحدى مقالاته التي نشرت بجريدة "الأزمنة المعاصرة" Les temps modernes من عام 1957

" لقد بات من الضروري أن نساند القضية الجزائرية، ونقف إلى جانب الشعب الجزائري ومن ثم القضاء على الاستعمار... بل لا بد من القيام بثورة ضد هذا النظام ... " (28)

من هذا المنطلق، تصبح ثقافة التواصل من الضرورات الحضارية التي تتطلبها المجتمعات البشرية في ظل سياسة إقصاء الثقافات التي تمارسها المركزية الغربية، ويظل الفارق قائما بين الغرب السياسي والغرب الثقافي.

استنتاج عام

تباينت خطابات مصدر الدراسة بين تقبل ثقافة الآخر ورفضها. ففي حين تم اللقاء الحضاري بين شعوب عربية وأجنبية رغم التباين العرقي والعقدي على النحو الذي جسده الرحالة (شانوني) وإعجابه الشديد بالموسيقى الجزائرية أو (جان بول سارتر) وتأييده للقضية الجزائرية. فقد شكلت الخطابات الأخرى نموذج الثقافة النسق الذي فرضته المركزية الغربية وفق المخيال الاستشراقي الذي استوحى مادته من فلسفة سياسة التهميش. وقد كان من الضروري توظيف تقنيات سردية بعيدا عن المرجعيات التي يفترض أن تشكل المصدر الأساس للخطاب السردي، لذلك تم اعتماد المقاربة النصية والاهتمام بالأثر الأدبي دونما التركيز على المرجعيات الذاتية والتاريخية.

مراجع البحث

1 ـ حسين خمري، فضاء المتخيل، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية العربية السورية، دمشق، 2001، ص 41

2 ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها

3 – Voir à ce propos Daniel – Henri Pageaux, Littérature générale et comparée, Armand Colin. Paris 1994.pp 92 -93

4 – Lahjomri Abdeljlil, L'image du Maroc dans la littérature française de Loti à Montherlant 1973,p10

5 – Voir à ce sujet Pierre Brunel et Yves Chevrel, précis de littérature comparée, PUF Paris 1989, pp139 – 143

6 – Daniel – Henri Pageaux, de l'imagerie à l'imaginaire – précis de littérature comparée, Paris 1989.p 140

7 – Marcel Detienne, l'invention de la mythologie, Gallimard, Paris 1982, p70

8 ـ محمد نور الدين أفاية، المتخيل والتواصل، مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1992، ط 1، ص 102

9 – Voir à ce propos Daniel- Henry Pageaux, la littérature générale et comparée, Armant Colin, Paris, 1994,p 95

10 – Marius – François Guyard, la littérature Comparée, PUF, Paris 1951, p 87

11 – Voir à ce propos Daniel- Henry Pageaux, p 102

12 ـ تزفيطان تودوروف، نحن والآخرون،ترجمة ربى حمود، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق 1998، ط 1 ، ص 299

13 ـ المرجع نفسه، ص 383

14 ـ بيير جوردا، الرحلة إلى الشرق، رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر، ترجمة مي عبد الكريم وعلي بدر، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2000، ص ص105 - 106

15 ـ عبد الفتاح يوسف، استراتيجية القارئ في النقد الثقافي، نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص، متاح على الشبكة www.caus.o rg

16 - محمد نور الدين أفاية، المتخيل والتواصل، ص 100
17 – Louis Bertrand, Le mirage oriental, Paris 1910, p60
18 - Alger républicain, Ecrits journalistiques d'Albert Camus, www.algeriepyrenees.com/article p 331
19 –Voir à ce sujet Pierre Brunel, Claude Pichois, André Michel Rousseaux, Qu'est-ce que la littérature comparée. Armand Colin 1983, pp139-143
20 - Alger républicain, Ecrits journalistiques d'Albert Camus, misère de la Kabylie, p 557
21 - محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 6 ، بيروت 1999 ، ص 206
22 – Guy de Maupassant, Ecrits sur le Maghreb, au soleil la vie errante, présentation de Denise Brahimi, Paris 1982, pp 80-82
23 - عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المؤسسة العربية للدراسات ط 2 ن بيروت 2003 ، ص 127
24 – Œuvres de Chateaubriand, Itinéraires de Paris à Jérusalem, tome 7, Paris 1827, p 286
25 – Œuvres complètes de Voltaire, traité sur la tolérance, htmlwww.Voltaire-intégral.com
26 - عبد المالك منصور حسن المصعبي، في مفهوم التسامح، متاح على الشبكة الإلكترونية www.atida.org/makal
27 –Chanony, mémoire d'un voyage en Algérie et retour par l'Espagne, Paris,1853,p 20
28 – Jean Paul Sartre, Situations, Gallimard, Paris1964,pp 51-52